

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصة ابني آدم بين القرآن الكريم والتوراة: دراسة مقارنة

غسان عاطف بدران

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:
فقد قص الله سبحانه علينا في كتابه الكريم قصص السابقين، ووصف هذا القصص بأنه أحسن القصص، قال تعالى: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (١) وبين لنا أن هذا القصص هو الحق، قال تعالى: ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (٢) وقال سبحانه: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ (٣) وفي هذا إشارة إلى أن ما يقصه غير القرآن من الكتب السابقة لم يعد فيه من الحق إلا القليل لأن أصحابها حرفوها وبدلوا ما فيها. وبين سبحانه أن قصص السابقين هي عبرة لأصحاب العقول النيرة الذين يقفون على تلك القصص ويدركون ما فيها من العبر والعظات ويستخرجون ما فيها من الدروس والعبر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَاتُ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٤).

وقد قام علماء المسلمين بدراسة قصص القرآن واستخراج ما فيها من العبر، إلا أن بعضهم حاول الإفادة من الإسرائيليات لبيان ما أجمله القرآن، غير أن ضرر هذه الإسرائيليات كان أكبر من الفوائد

-
- ١- سورة يوسف، الآية: ٣.
 - ٢- سورة الكهف، الآية: ١٣.
 - ٣- سورة المائدة، الآية: ٢٧.
 - ٤- سورة يوسف، الآية: ١١١.

- إن كان هناك فوائد بالأصل - فما ورد من الإسرائيليات أنواع^(٥):

- ١- ما يكون موافقاً لما ورد في القرآن، وهنا نأخذ ما ورد في القرآن ولا حاجة لهذا النوع.
- ٢- ما يكون مخالفاً لما ورد في القرآن، وهذا نرفضه ولا يجوز الاعتداد به.
- ٣- ما يكون غير مخالف للقرآن الكريم ولا موافق له، وهذا النوع ليس فيه أي فائدة حيث إنه يتعلق بذكر أسماء أشخاص أو بلاد أو تفصيلات لأحداث لم يتطرق إليها القرآن، ولو كان في ذكرها فائدة ليئنها.

وقد قمت بدراسة مقارنة لقصة من قصص القرآن الكريم مع ما ورد في نص التوراة لأبين الفرق الكبير بين عرض القرآن للقصة وعرض التوراة لها، خاصة ونحن نعلم أن التوراة قد عبثت فيها أيدي البشر على مدار العصور ولم يبق فيها من كلام الله سبحانه إلا القليل.

وأريد من بحثي هذا أيضاً أن أسهل على من يريد معرفة ما في التوراة، فقد لحظت من خلال تدريسي للتفسير والقصص القرآني جهل الطلبة بما ورد في التوراة واكتفائهم بما يقرؤونه في كتب التفسير أو كتب القصص من روايات إسرائيلية.

وقد اخترت قصة "ابني آدم" لهذه الدراسة المقارنة وقسمت بحثي إلى:

- ١- مقدمة.
 - ٢- تمهيد: يشمل تعريف التوراة والفرق بين منهج القرآن ومنهج التوراة في عرض القصص.
 - ٣- المبحث الأول: ذكرت فيه ورود قصة ابني آدم في القرآن الكريم وفي التوراة.
 - ٤- المبحث الثاني: بينت فيه أوجه التشابه بين القرآن الكريم والتوراة بشأن قصة ابني آدم.
 - ٥- المبحث الثالث: بينت فيه أوجه الاختلاف بين القرآن الكريم والتوراة بشأن قصة ابني آدم.
 - ٦- الخاتمة: لخصت فيها بنقاط أهم النتائج من هذه الدراسة.
- وأخيراً وليس آخراً أرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا البحث المتواضع، والله ولي التوفيق.

تمهيد: تعريف التوراة والفرق بين منهجها القصصي ومنهج القرآن:

أولاً: التوراة:

يطلق اسم التوراة أساساً على الأسفار الخمسة الأولى من كتاب العهد القديم وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والثنية، وكلمة التوراة تعني الشريعة المكتوبة، وقد يطلق لفظ التوراة على

٥- انظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ، ج ١، ص ٥.

العهد القديم بأكمله من باب إطلاق الجزء على الكل (٦).

وينقسم العهد القديم إلى عدة تقسيمات، فاليهود يعترفون بثلاثة وعشرين سفرًا، والسامريون يعترفون بالأسفار الخمسة الأولى فقط وبسفر يشوع، والنصارى البروتستانت يعترفون بتسعة وثلاثين سفرًا، أما الكاثوليك فيعترفون بستة وأربعين سفرًا (٧). ويتفق الجميع على الاعتراف بالأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى عليه السلام، ويزعمون أنه هو كاتبها. غير أن موريس بوكاي ينفي هذا الادعاء بقوله: "وظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة تعدّان موسى نفسه هو كاتب التوراة... أما اليوم فقد هُجر هذا الفرض تماماً" (٨).

ثانياً: القصص في القرآن وفي التوراة:

مما يلفت النظر أن القصة في القرآن ليست أمراً مستقلاً قائماً بذاته، بل هي آيات تأتي في سياق سورة معيّنة من القرآن يُذكر فيها ما يتناسب مع موضوع السورة التي ذكرت فيها، لذلك نجد الكثير من قصص القرآن يتكرر في سور متعددة ولا يُذكر مرة واحدة. في حين نجد التوراة تذكر القصة الواحدة كاملة وفي موضع واحد دون تكرار.

ويُلاحظ كذلك أن قصص القرآن يأتي مجملًا دون العناية بدقائق التفصيلات، لأن القصد منه هو العبرة والعظة وليس مجرد سرد الأحداث والوقائع كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٩) لذلك نجد القصص القرآني يخلو أحياناً من ذكر المكان أو الزمان أو الأسماء، وقد تخلو القصة من ذكر هذا كله كقصة أصحاب القرية وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها.

أما التوراة فإنها تهتم بكثير من التفصيلات لدرجة إصابة قارئها بالملل، طبعاً لأنها من كلام البشر بعد أن غيروا كلام الله سبحانه. يقول بوكاي: "كان الكتاب المقدس قبل أن يكون مجموعة أسفار تراثاً شعبياً لا سند له إلا الذاكرة، وهي العامل الوحيد الذي اعتمد عليه في نقل الأفكار" (١٠).

٦- انظر: محمد علي البار، الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم: دراسة مقارنة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ١٢.

٧- بزيادة أسفار: طوبيا، يهوديت، الحكمة، يشوع بن سيراخ، المكابيين الأول، المكابيين الثاني.

٨- أنظر: موريس بوكاي، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، بيروت، لبنان، طبعة رابعة، ١٩٧٧م، ص ٢٦.

٩- سورة يوسف، الآية: ١١١.

١٠- انظر: بوكاي، دراسة الكتب المقدسة، ص ٢٠.

ثم إن القارئ لقصص التوراة لا يكاد يجد فيها أي عبرة من العبر حيث نقرأ القصة من بدايتها إلى نهايتها دون معرفة الفائدة المرجوة منها، بل على العكس تماماً نجد أنها تعطي نتائج سلبية للقارئ وخاصة فيما يتعلق بصفات الله سبحانه حيث تظهر هذه الصفات أقرب لصفات البشر منها لصفات الإله الخالق، فهو (أي الخالق) يخاف ويمشي على الأرض ولا يعلم الغيب... - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذا القصص أيضاً يظهر الأنبياء عليهم السلام بصفات لا تليق إلا بسفلة البشر من الكذب والغدر والخيانة وعبادة الأوثان وشرب الخمر والزنا...، فضلاً عما فيها من أخطاء تاريخية وأمور منافية للمنطق والعقل السليم.

المطلب الأول: ذكر القصة في القرآن الكريم وفي التوراة:

أ- القرآن الكريم:

ذكرت القصة في موضع واحد في القرآن في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿وَأَتَلُّوا عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَةِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوثِقُ أَعْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿١١﴾.

ب- التوراة:

ذكرت قصة ابني آدم في التوراة في سفر التكوين، الإصحاح الرابع، بعد قصة آدم وحواء مباشرة: "واضطجع آدم مع امرأته حواء فحملت وولدت قايين. فقالت: رزقني الرب ابناً. وعادت فولدت أخاه هابيل. وصار هابيل راعي غنم وقايين فلاحاً يفلح الأرض. ومرت الأيام فقدم قايين من ثمر الأرض تقدمة للرب، وقدم هابيل أيضاً من أبقار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب برضى إلى هابيل وتقدمته، أما إلى قايين وتقدمته فما نظر برضى، فعضب قايين جداً وعبس وجهه. فقال الرب لقايين: لماذا

عَضِبَتْ ولماذا عَبَسَ وجهُكَ؟ إذا أَحَسَّنْتَ عَمَلًا، رَفَعْتُ شَأْنَكَ، وإذا لَمْ تُحَسِّنْ عَمَلًا، فَالْحَطِيئَةُ رَابِضَةٌ بِالْبَابِ وهي تَتَلَهَّفُ إِلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْوَدَ عَلَيْهَا.

وقال قايين لهابيل أخيه: هَيَّا لِنَخْرُجَ إِلَى الْحَقْلِ. وبينما هُما في الْحَقْلِ هَجَمَ قايينُ على هابيل أخيه فَفَتَلَهُ. فقال الربُّ لقاين: أين هابيل أخوك؟ قال: لا أعرف. أحرَسُ أنا لأخي؟

فقال له الربُّ: ماذا فعلت؟ دَمُ أَخِيكَ يَصْرُخُ إِلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ. والآنَ، فمَلعونَ أَنْتَ مِنَ الْأَرْضِ التي فَتَحَتْ فَمَها لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. فَهِيَ لَنْ تُعْطِيَكَ خِصْبَها إِذا فَلَحَتْها، طريداً شريداً تكونُ في الْأَرْضِ. فقال قايين للربِّ: عِقابِي أَقْسَى مِنْ أَنْ يُجْتَمَلَ. طَرَدْتَنِي اليَوْمَ عن وَجهِ الْأَرْضِ وَحَجَبْتَ وَجْهَكَ عَنِّي، وطريداً شريداً صرْتُ في الْأَرْضِ، وَكُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي.

فقال له الربُّ: إِذا، كُلُّ مَنْ قَتَلَ قايينَ فَسَبْعَةُ أَضْعافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ. وَجَعَلَ الرَّبُّ على قايينَ علامَةً لئَلَّا يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. وَخَرَجَ قايينُ مِنْ أَمَامِ الرَّبِّ وَأقامَ بِأَرْضِ نُودَ(١٢) شرقي عَدَنَ(١٣).

المطلب الثاني: أوجه التشابه في قصة ابني آدم بين القرآن الكريم والتوراة:

١- ابنا آدم هما من صلبه:

يتفق القرآن الكريم مع التوراة على ذكر ولدين لآدم عليه السلام حيث يقول تعالى: ﴿وَأَتَلَّ عَلَيْهِمَ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾(١٤). وورد في التوراة: "واضطجع آدم مع امرأته حواء، فحملت وولدت قايين، فقالت: رزقني الرب ابناً. وعادت فولدت أخاه هابيل"(١٥).

إذاً القرآن والتوراة يذكران أنهما ابنا آدم من صلبه، مع أن بعض العلماء يذكر أنهما ليسا من صلب آدم بل أخوان من بني إسرائيل لأنه جاء بعد القصة: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾(١٦) وأن القربان كان في بني إسرائيل - كما يروى عن الحسن البصري والضحاك(١٧).

١٢- نود: اسم سامي معناه التائه أو المنفي، انظر: قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، مطبعة الحرية، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، ٢٠٠٠م، ص ٩٨٣.

١٣- سفر التكوين، إصحاح ٤، ١.

١٤- سورة المائدة، الآية: ٢٧.

١٥- سفر التكوين، إصحاح ٤.

١٦- سورة المائدة، الآية: ٣٢.

١٧- انظر: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، لبنان، طبعة أولى، ٢٠٠١م، ج ٣، ص ٤٧٥. وانظر: محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٣٠.

لكن معظم المفسرين يقولون: إنها ولداه من صلبه، وفي مقدمة هؤلاء الطبري حيث يقول في تفسيره: "أنه لا فائدة من ذكر أنها من أبناء آدم إن كانا من بني إسرائيل لأن الذي يقرب القربان أبناء آدم وليس الملائكة والشياطين وبقية المخلوقات" (١٨). ثم يذكر الحديث الذي يبين أن ابن آدم القاتل هو أول من سنَّ القتل فكيف يكون من بني إسرائيل؟! قال عليه الصلاة والسلام: "ما من نفس تقتل ظلماً إلى يوم القيامة إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل" (١٩). ولو كان من بني إسرائيل لعلم الدفن.

ويبدع صاحب تفسير التحرير والتنوير (٢٠) عندما يقول أن ذُكر "ابن آدم" بالمتنى دليل على أنها ولداه، لأن ذكر ابن آدم مفرداً قد يراد به واحد من البشر كما في الحديث: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك.."(٢١) وكذلك لو ورد مجموعاً نحو: ﴿يَبْنَیْءَ آدَمَ حُدُوًّا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (٢٢). والراجع مما ذكر أن المذكورين في الآية هما ولداه من صلبه وليسا من بني إسرائيل كما قال الحسن البصري، لأنها لو كانا كذلك لذكر القرآن أنها من بني إسرائيل.

٢- تقديم القربان:

ذكر تقديم القربان وقبوله من أحدهما ورفضه من الآخر في القرآن الكريم والتوراة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ...﴾ (٢٣). وفي التوراة: "ومرت الأيام فقدم قايين من ثمر الأرض تقدمة للرب، وقدم هايل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها، فنظر الرب برضى إلى هايل وتقدمته..." (٢٤).

-
- ١٨- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ ج ٦، ص ١٨٩. وانظر: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ١، ص ٣٧١.
- ١٩- محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب قول النبي: يعذب الميت ببعض بكاء أهله. ومسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب إثم من سن القتل، رقم: ١٦٧٧.
- ٢٠- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ٥، ص ٨٢.
- ٢١- محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، باب فضل التوبة والاستغفار، رقم: ٣٥٤٠.
- ٢٢- سورة الأعراف، الآية: ٣١.
- ٢٣- سورة المائدة، الآية: ٢٧.
- ٢٤- سفر التكوين، إصحاح ٤، عدد ٣-٤.

وما ورد في التوراة فيه تفصيل للقربان سأحدث عنه في المطلب التالي عند الحديث عن أوجه الخلاف بين القرآن والتوراة في القصة. وتذكر التوراة أن قابيل غضب عندما رفض قربانه: "أما إلى قايين وتقدمته فما نظر برضى فغضب قايين جداً وعبس وجهه" (٢٥). وهذا ما أشار إليه القرآن: ﴿قَالَ لَا قَوْلُنَاكَ...﴾ (٢٦) وهذا دليل على غضبه مما حصل.

٣- القتل:

يذكر القرآن الكريم أن ابن آدم الذي لم يقبل قربانه قتل أخاه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ (٢٧). وفي التوراة: "وبينا هما في الحقل هجم قايين على هابيل أخيه فقتله" (٢٨).

كلا النصين لم يبيّنا كيفية قتل قابيل لأخيه هابيل ولا مكانه. ولا يوجد في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يبين ذلك أيضاً. ومع ذلك فإن كتب التفسير ملئت بروايات عديدة عن كيفية قتل الأخ لأخيه، من ذلك أنه وجده نائماً فشدخ رأسه بصخرة (٢٩)، وذكر ابن كثير عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أنه قتله عضاً وخنقاً كما تقتل السباع (٣٠)، ويذكر ابن كثير أيضاً رواية عجيبة أن قابيل أخذ معه حديدة واستقبل أخاه وهو عائد وضربه بها فقتله (٣١)، ونتساءل هنا هل كان في زمانهم استخدام للحديد؟! وهناك روايات أخرى ذكرت كيفية القتل. أقول: ولا فائدة من معرفة كيفية القتل طالما أن الله تعالى لم يبين لنا ذلك، وهذا قال الطبري في تفسيره: "ولا خبر عندنا يقطع بصفة قتله إياه" (٣٢).

ثم إن تهديد الأخ لأخيه بالقتل دليل على أنه يعرف القتل وكيف يكون، وهذا ما أشار إليه صاحب تفسير التحرير والتنوير بقوله: "وقد علم الأخوان ما هو القتل بما يعرفانه عن ذبح الحيوان والصيد فكان القتل معروفاً لهما ولهذا عزم عليه قابيل" (٣٣)، وربما تكون الحكمة من عدم ذكر القرآن

٢٥- المصدر السابق، إصحاح ٤، عدد ٥.

٢٦- سورة المائدة، الآية: ٢٧.

٢٧- سورة المائد، الآية: ٣٠.

٢٨- سفر التكوين، إصحاح ٤، عدد ٨.

٢٩- تفسير الطبري، ج ٦، ص ١٩٥.

٣٠- تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٤٦.

٣١- المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣.

٣٢- تفسير الطبري، ج ٢، ص ١٩.

٣٣- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٥، ص ٨٣.

لطريقة القتل هي عدم تعلقها في ذهن قارئ القرآن أو المستمع له وذلك لفضاعة الأمر أيًا كانت الطريقة.

٤ - الندم على القتل:

ذكر القرآن الكريم أن هابيل ندم على قتل أخيه دون بيان ماهية هذا الندم، قال تعالى: ﴿...فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. أما التوراة فلم تنص صراحة على الندم لكنها ذكرت ما يفيد أن قابيل أصبحت حياته شقاءً فقال قاين للرب: "عقابي أقسى من أن يحتمل طردتني اليوم عن وجه الأرض وحجبت وجهك عني وطريداً شريداً صرت في الأرض".

وقد تناول المفسرون الحديث عن ندم قابيل وهل هو توبة فذكروا عدة وجوه:

الأول: أن الندم لم يكن توبة للأمام السابقة.

الثاني: أنه ندم على حمله لا على قتله.

الثالث: أنه ندم أنه لم يُواره حين قتله.

الرابع: أنه ندم على خسران أخيه لا على الذنب (٣٤).

هذه أوجه الشبه بين القصة في القرآن الكريم والقصة في التوراة، وهي كما يظهر للدارس قليلة كحال كل القصص في التوراة فقليلاً ما تتطابق أو تتشابه مع قصص القرآن.

المطلب الثالث: أوجه الاختلاف في قصة ابني آدم بين القرآن الكريم والتوراة:

١ - قابيل وهابيل:

لم يسم القرآن الكريم ابني آدم، قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ (٣٥)، وكذلك لم يرد ذكر اسميهما في الحديث النبوي الشريف بل ذكر في الحديث ما ذكر في القرآن، قال عليه الصلاة والسلام: "ما من نفس تقتل ظلماً إلى يوم القيامة إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها" (٣٦). ومع ذلك فإن المفسرين يذكرون أن الأخوين هما قابيل وهو القاتل وهابيل وهو المقتول، ولم أجد من المفسرين من اكتفى بظاهر القصة القرآنية دون تحديد الأسماء سوى محمد رشيد رضا (٣٧)

٣٤ - عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤ هـ، ج ٢، ص ٣٣٩.

٣٥ - سورة المائدة، الآية: ٢٧.

٣٦ - سبق تخريجه في هامش: ١٩.

٣٧ - انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م،

ج ٦، ص ٢٨٣.

وسيد قطب^(٣٨) ومحمد جواد مغنية^(٣٩) فهم يعتبرون ذلك من الروايات الإسرائيلية، وأرى أن هذا القول هو الأقرب للصواب، فقد ذكر اسم قاييل في التوراة خمس عشرة مرة وذكر اسم هاييل ثماني مرات^(٤٠)، وتذكر التوراة قاييل باسم قايين ويقول أصحاب قاموس الكتاب المقدس إنه اسم سامي ومعناه "حدّاد"^(٤١) وهو كذلك في اللغة العربية^(٤٢)، وأنا أستبعد هذا فلا يمكن أن تكون الحدادة معروفة في ذلك الوقت، ولمن سيعمل قاييل حداداً؟ وأما هاييل فلا خلاف في اسمه عند علماء التفسير والتاريخ كما يقول صاحب المنار^(٤٣)، غير أن الثعلبي ذكر في تفسيره في اسم هاييل ثلاث لغات هي هاييل وهابل وهابن، أما قاييل ففي اسمه خمس لغات: قاييل وقايين وقابل وقبن وقابن^(٤٤)، ولم أجد غيره من المفسرين ذكر هذه الروايات.

ويمكن أن يكون اسماً ابني آدم هاييل وقاييل، ويمكن أن يكونا غير ذلك، طالما أنه لم يرد حديث صحيح يذكرها. لكنني سأعتمد في البحث هذين الاسمين وذلك لاشتهارهما عند جميع المفسرين والمؤرخين.

٢- نوع القربان وسببه:

لم يذكر القرآن الكريم سبب تقديم القربان ولا ماهيته. بينما ذكرت التوراة ماذا قدم الأخوان ولكن دون ذكر سبب القربان: "ومرّت الأيام فقدم قايين من ثمر الأرض تقدمةً للرب، وقدم هاييل أيضاً من أبكار غنمه ومن سببها"^(٤٥).

وكما نلاحظ فإن نص التوراة في هذا الموضوع مختصر ومع ذلك نجد الكثير من كتب التفسير تذكر روايات مطولة ومختصرة حول سبب القربان وماهيته، من ذلك أنها قرباه لغير سبب أو لسبب على

٣٨- انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط ٩، ١٩٨٠م، مجلد ٦، ص ٨٧٥.

٣٩- انظر: محمد جواد مغنية، الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠م، ج ٣، ص ٤٥.

٤٠- الكتاب المقدس، تكوين، إصحاح ٤.

٤١- قاموس الكتاب المقدس، ص ٧١٠.

٤٢- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥م.

٤٣- رضا، تفسير المنار، ج ٦، ص ٢٨٣.

٤٤- أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ج ٤، ص ٤٨.

٤٥- سفر التكوين، إصحاح ٤.

الأشهر (٤٦). وقد روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: "كان من شأنها أنه لم يكن مسكين فيتصدق عليه وإنما كان القربان يقربه الرجل فيينا ابنا آدم قاعدان إذ قالوا: لو قربنا قرباناً، وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فأكلته وإن لم يكن رضيه الله خبت النار، فقربا قرباناً وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً وأن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر أبغض زرعه فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع، وأن ابن آدم قال لأخيه أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ورد علي، فلا والله لا تنظر الناس إلي وإليك وأنت خير مني فقال لأقتلنك" (٤٧).

هذه الرواية لا تذكر أبداً سبباً للقربان سوى التقرب إلى الله سبحانه، وفيها أمر غريب أن قابيل قال لأخيه: والله لا تنظر الناس إلي وإليك وأنت خير مني، فمن هم هؤلاء الناس ولم يكن في الأرض سوى آدم وحواء وابتئها؟!!

ومن ذلك ما ذكره الطبري عن ابن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: "أن آدم أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توامة هابيل وأمر هابيل أن ينكح أخته توامة قابيل فسلم لذلك هابيل ورضي، وأبى قابيل ذلك وكرهه تكراً عن أخت هابيل ورغبةً بأخته عن هابيل وقال: نحن ولادة الجنة وهما ولادة الأرض وأنا أحق بأختي. ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قابيل من أحسن الناس فضن بها على أخيه وأرادها لنفسه. فالله أعلم أي ذلك كان. فقال له أبوه: يا بني إنها لا تحل لك، فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه، فقال له أبوه: يا بني فقرب قرباناً ويقرب أخوك هابيل قرباناً فأيكما قبل الله قربانه فهو أحق بها. وكان قابيل على بذر الأرض وكان هابيل على رعاية الماشية فقرب قابيل قمحاً وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه. وبعضهم يقول: قرب بقرة فأرسل الله ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل" (٤٨).

وهذه الرواية منقولة عن أهل الكتاب مع أن القارئ للتوراة لا يجد هذه التفصيلات فمن أين جاءت هذه الروايات؟ لا أحد يدري، وهل صحيح أن الخلاف بين الأخوين ثم القتل كان بسبب الزواج؟ وعلى فرض رضي قابيل بزواج محرم فهل سيسمح أبوه بذلك؟ وأين أمه من هذا؟ بل وأين أخته وهل رضيت بهذا؟

٤٦- انظر: عز الدين عبد السلام الدمشقي، تفسير القرآن، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣٨٠.

٤٧- تفسير الطبري، ج ٦، ص ١٨٧.

٤٨- المصدر السابق، ج ٦، ص ١٨٨.

كذلك نجد تناقضاً في هذه الروايات بشأن القربان: فرواية تذكر أن هابيل قدم بقرة، وأخرى أنه قدم شاة، وثالثة أنه قدم كبشاً وأن الله خزن ذلك الكبش في الجنة أربعين سنة وهو الكبش الذي فدى به إسماعيل، فهل الفترة الزمنية بين آدم وابنه وبين إبراهيم وإسماعيل أربعون عاماً؟! مع أن بعض المفسرين يذكرون أن الكبش بقي يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل دون تحديد المدة (٤٩). وأما قربان قابيل فالتوراة ذكرت أنه قدم من ثمر الأرض، بينما روايات المفسرين تذكر أنه قدم بقللاً وأخرى أنه قدم حزمة سنبل (٥٠).

٣- حوار بين الله وقابيل:

لم يذكر القرآن الكريم أن حواراً جرى بين الله سبحانه وبين العصي القاتل قابيل، بينما تذكر التوراة أن الله خاطب قابيل بعد رفض قربانه: "فقال الرب لقابيل: لماذا غضبت؟ ولماذا عبس وجهك؟! إذا أحسنت عملاً رفعت شأنك، وإذا لم تحسن عملاً فالخطية رابضة بالباب وهي تتلهف إليك وعليك أن تسودَ عليها" (٥١). فهل هذا استرضاء لقابيل؟! والعجيب أنه لا يذكر في النص أي رد من قابيل.

وهنا حوار بعد أن قتل قابيل أخاه: "فقال الرب لقابيل أين هابيل أخوك؟ قال: لا أعرف أحارسُ أنا لأخي؟" (٥٢). هكذا يتكلم القاتل بكل صلف وجلافة مع الخالق سبحانه - فقال له الرب: "ماذا فعلت؟ دم أخيك يصرخ إليّ من الأرض والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك..." والعجيب أن بعض كتب التفسير تذكر هذا الحوار الذي يزعم أنه دار بين الله سبحانه وبين قابيل مع أن القرآن الكريم لم يذكر ذلك.

٤- الصراع النفسي:

بين القرآن الكريم أن صراعاً داخلياً دار في نفس قابيل قبل أن يقدم على فعلته، قال تعالى:

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ... ﴾ (٥٣) بينما لم تشر التوراة إلى هذا الأمر.

وقد تناول المفسرون الحديث عن هذا الأمر. فذكر بعضهم أن معنى "طوَّعت" بمعنى شجعت

٤٩- العز بن عبد السلام، تفسير القرآن، ج ١، ص ٣٨٠.

٥٠- تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٤٣.

٥١- سفر التكوين، إصحاح ٤، ٧.

٥٢- المصدر السابق، إصحاح ٤، ٩.

٥٣- سورة المائدة، الآية: ٣٠.

أو زينت له (٥٤)، أو سهلت له نفسه (٥٥) وطوعت فَعَلت من الطوع والطواعية وهي الإجابة إلى الشيء (٥٦)، والقتل في ذاته مستصعبٌ عظيمٌ على النفوس فردَّته هذه النفس الأمارة بالسوء طائعاً منقاداً حتى وأقعه صاحبُ هذه النفس.

وهناك قراءة أخرى "فطاوعت" والمعنى كأن القتل يدعو إلى نفسه بسبب الحقد والحسد الذي أصاب قبايل، وكأن النفس تأبى لذلك ويصعب عليها وكل جهة تريد أن تطيعها الأخرى إلى أن تفاقم الأمر وطاوعت النفس القتل فواقعت (٥٧). ويقول صاحب تفسير المنار: "فتحن نرى من أحوال الناس واختبار القضاة للجنة أن كل من تحدته نفسه بقتل أخ له من أبيه القريب أو البعيد "آدم" يجد من نفسه صارفاً أو عدة صوارف تنهاه عن ذلك فيتعارض المانع والمقتضى في نفسه زمناً طويلاً أو قصيراً حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح المقتضى عنده على الموانع، فعند ذلك يقتل إن قدر، فالتطويع لا بد فيه من التكرار كتذليل الحيوان الصعب وتعليم الصناعة أو العلم، وقد يكون التكرار لأجل إطاعة مانع أو صارف واحد وقد يكون لإطاعة عدة صوارف وموانع، وأقرب الألفاظ التي قيلت إلى هذا المعنى كلمة "التشجيع" المأثورة فهي تدل على أنه كان يهاب قتل أخيه وتجنن فطرته دونه، فما زالت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه عليه حتى تجرأ وقتل عقب التطويع بلا تفكير ولا تدبر للعاقبة" (٥٨).

وهكذا يبين القرآن بكلمة واحدة "فطوعت" أن القتل ليس أمراً هيناً على النفس البشرية بل هي بفطرتها تأباه وترفضه، ومن يريد الإقدام عليه سوف تنازعه نفسه في ذلك حتماً، وهذا ما لم تبينه القصة في التوراة بل يفهم منها أن قبايل أقدم على القتل بكل يسر وسهولة.

٥- عقاب قبايل:

لم يذكر القرآن الكريم عقاب قبايل على فعلته لكن الآيات تشير إلى ما حل به مثل قوله تعالى:

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥٩)، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٦٠)، وكذلك قول أخيه له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ

-
- ٥٤- تفسير الطبري، ج ٦، ص ١٦٥.
- ٥٥- فخر الدين محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ١١، ص ١٦٤.
- ٥٦- النحاس، معاني القرآن الكريم، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ج ٢، ص ٢٩٧.
- ٥٧- ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ١٨٠.
- ٥٨- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٦، ص ٢٨٦.
- ٥٩- سورة المائدة، الآية: ٣٠.
- ٦٠- سورة المائدة، الآية: ٣١.

يَأْتِي وَإِيَّاكَ فَتُكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾، وكان هذا هو الجزاء الذي استحقه قاييل على فعلته وهو ما يؤكد الحديث الذي يرويه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل" (٦٢).

وأما في التوراة: "... والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فمها لتقبل دم أخيك من يدك، فهي لن تعطيك خصبها إذا فلتحتها، طريداً شريداً تكون في الأرض، فقال قايين للرب: "عقابي أقسى من أن يحتمل طردتني اليوم عن وجه الأرض وحجبت وجهك عني، وطريداً شريداً صرت في الأرض وكل من وجدني يقتلني" (٦٣). نلاحظ من هذا النص أن عقاب قاييل كان دنيوياً وحسب، ولا ذكر لعذاب الآخرة، ومع ذلك ذكر المفسرون روايات عدة عن العذاب الذي لحق بقاييل، من ذلك ما نقله السيوطي أنه لما قتل قاييل هابيل مسح الله عقله وخلع فؤاده تائهاً حتى مات (٦٤). وعن مجاهد أنه علقت إحدى رجلي قاييل إلى فخذهما وساقها وعلقت منها فهو معلق إلى يوم القيامة ووجهه إلى الشمس ما دارت، عليه في الصيف حظيرة من نار وفي الشتاء حظيرة من ثلج (٦٥).

٦- الحوار بين الأخوين:

قص القرآن الكريم علينا حواراً دار بين الأخوين: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۗ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۗ إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

بينما لا نجد في التوراة سوى جملة واحدة قالها قاييل لأخيه: "وقال قايين لهابيل أخيه: هيا لنخرج إلى الحقل، وبينما هما في الحقل هجم قايين على هابيل فقتله" (٦٧). أما في التوراة السامرية فنجد الآتي: "فقال قايين لهابيل: نمضي إلى الصحراء، وكان عند كونها في الصحراء قام قايين إلى هابيل أخيه

٦١- سورة المائدة، الآية: ٢٩.

٦٢- سبق تخريجه في هامش: ١٩.

٦٣- سفر التكوين، إصحاح ٤، ١١-١٤.

٦٤- جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ج ٣، ص ٦١.

٦٥- الحسين بن مسعود، تفسير البغوي، تحقيق: خالد العك، دار المعرفة، بيروت، ج ٢، ص ٣١.

٦٦- سورة المائدة، الآية: ٢٧-٢٩.

٦٧- سفر التكوين، إصحاح ٤، ٨.

فقتله" (٦٨)، وما ورد في التوراة يظهر أن قابيل أضمر قضية القتل في نفسه ولم يعلم بها أخاه ثم غدر به، لكن ما ذكره القرآن يظهر قابيل وقد تمكن الشر من قلبه واستحوذ عليه الشيطان فأغلق قلبه عن قبول الحق، ولم يقف قابيل عند عدم قبول الحق بل تجاوز ذلك إلى نية القتل ثم أعلم أخاه بذلك بجرأة مجردة من كل معاني الأخوة والإنسانية: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ ولم يذكر القرآن كلاماً آخر لقابيل، وفي هذا إشارة إلى تصميمه على تنفيذ هذه الجريمة، بعكس كلام هابيل فقد استرسل في كلامه محاولاً ثني أخيه عن تلك الفعلية النكراء، فذكر أن الله تعالى يتقبل من المتقين وفي هذا دعوة له لتقوى الله، ثم بين له أنه لن ييسط له يده بالقتل لأنه يخاف الله تعالى، ثم حذره من الإثم الذي سيحمله والمصير الذي سيؤول إليه وهو نار جهنم.

٧- الغراب:

بيّنت قصة ابني آدم في القرآن أن الله تعالى قد أرسل غراباً ليرى الابن القاتل كيف يتصرف في جثة أخيه المقتول، بينما لم تذكر قصة الغراب بتاتاً في التوراة، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ، كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلُكَ وَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٦٩). إن آيات القرآن تظهر أن الابن القاتل بعد ارتكابه جريمة القتل عجز عن التصرف في جثة أخيه لكن دون ذكر تفاصيل الأمر. وذكرت بعض كتب التفسير أنه قد ألقى جثته في العراء (٧٠)، وبعضها يذكر أنه حملها على ظهره مدة من الزمن، فبعضهم قال: حمله أربعين يوماً (٧١)، وبعضهم يقول: حمله سنة كاملة (٧٢)، والبعض الآخر يقول: مائة عام (٧٣).

أقول: وجميع هذه الأقوال لم يرد فيها نص صحيح، وكذلك هي مخالفة للعقل لأن الجثة سوف تتعفن في مدة وجيزة فكيف سيحملها لأيام عدا عن حملها سنة؟ والأمر المستهجن أن يحملها مائة عام! ثم كيف سيحملها مدة من الزمن ويغيب عن والديه؟ وكيف لا يفقد آدم وزوجه ابنيهما هذه المدة؟ ربما افترض القائلون بهذا أن الأخوين كانا وحدهما في الأرض.

٦٨- التوراة السامرية، تكوين.

٦٩- سورة المائدة، الآية: ٣١.

٧٠- تفسير الطبري، ج ٦، ص ١٩٥.

٧١- تفسير البغوي، ج ٢، ص ٣٠.

٧٢- تفسير الطبري، ج ٦، ص ١٩٧.

٧٣- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، ج ٦، ص ١٤١.

والذي تميل إليه النفس ما ذكره بعض المفسرين أنه احتار في التصرف في الجثة مدة وجيزة ثلاثة أيام^(٧٤) أو ما ذكره البعض مدة يوم^(٧٥)، وذكر بعض المفسرين أن الله سبحانه أرسل الغراب من بين كل الطيور لونه الأسود ولأنه يُتشاءم به^(٧٦)، لكنني أرى أن الأمر معكوس تماماً فربما تشاءم الناس من الغراب لأنه كان شاهداً على أول جريمة ترتكب في الأرض فارتبط ذكر الغراب بهذه الجريمة النكراء فكان التشاؤم منه. ويذكر بعض المفسرين أن الغراب معروف عنه أنه يدفن الأشياء^(٧٧)، لذلك فهو يبحث في الأرض. فالذي حصل أن الله سبحانه أرسل هذا الغراب ليقوم بالبحث على مرأى ابن آدم الذي اهتدى إلى طريقة يتخلص فيها من جثة أخيه وذلك بمواراته في التراب، وقد يكون الغراب دفن جثة غراب آخر كما يذكر بعض المفسرين^(٧٨) وقد يكون قام بمجرد البحث فقط فخطرت فكرة الدفن ببال القاتل^(٧٩). وحكمة أخرى من ذكر قصة الغراب هنا هي بيان عجز هذا القاتل وتهديده لأخيه بالقتل ثم تنفيذه للتهديد لا يدل على القوة بالضرورة. يقول صاحب الظلال: "و شاءت حكمة الله أن تقف أمام عجزه وهو الباطش القاتل الفاتك عن أن يوارى سوءة أخيه عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير"^(٨٠).

- ٧٤- أبو الحسن بن سليمان، تفسير مقاتل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٢٩٥ وانظر: نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٤٠٨.
- ٧٥- عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف النعالي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج ١، ص ٤٠٨، وانظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٢، ص ١٨٠.
- ٧٦- شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٦، ص ١١٦ وأبو حيان، البحر المحيط، ج ٣، ص ٤٨٠.
- ٧٧- الرازي، التفسير الكبير، ج ١١، ص ١٦٥.
- ٧٨- تفسير الطبري، ج ٦، ص ١٩٧، وانظر: محمد بن عبد الله ابن زنين، تفسير القرآن العزيز، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٢٣. وعلي بن أحمد الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٥هـ، ج ١، ص ٣١٦، وجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، الجلالين، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ج ١، ص ١٤١، وعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٢٩.
- ٧٩- محمد بن احمد بن محمد الغرناطي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٣م، ج ١، ص ١٧٤.
- ٨٠- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٨٧٧.

٨- قابيل محمي بأمر الله تعالى:

يبيّن لنا القرآن أن القاتل قد أصبح من الخاسرين والنادمين فهو فاقد لكل ميزة خيرة وقد استحق الغضب من الله والنار يوم القيامة. أما التوراة فتذكر أمراً عجبياً أن قابيل القاتل في حماية الله: "فقال قاين للرب... شريداً صرتُ في الأرض وكل من وجدني يقتلني، فقال له الرب: إذا كُلُّ من قتل قاينَ فسبعة أضعاف يُنتقم منه، وجعل الربُّ على قاين علامة لثلاثي يقاتله كُلُّ من وجده" (٨١).

وهنا أسئلة عدة تطرح نفسها: من هم الذين يخاف قابيل منهم أن يقتلوه ولا يوجد في الأرض غير أبويه؟ وما هي العلامة التي وضعت على قابيل؟ ثم لماذا سينتقم الله ممن يقتل القاتل ويكون عقابه مضاعفاً سبعة أضعاف؟ لم تجب التوراة عن هذه الأسئلة، والعقل لا يدرك هذه الحماية للقاتل والدفاع عنه، بينما يدرك العقل بداهة أن القاتل يستحق العقاب.

٩- قابيل يُطرد من الجنة:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أخرج آدم وامرأته من الجنة بعد أكلهما من الشجرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٨٢). وذكرت التوراة ذلك في قصة آدم: "فأخرج الربُّ الإلهُ آدمَ من جنةِ عدنٍ ليفلح الأرض التي أخذ منها، فطرَدَ آدمَ وأقام الكروبيمَ (٨٣) شرقي جنة عدن" (٨٤).

لكننا نجد التوراة تذكر ما نفهم منه أن قابيل أخرج من جنة عدن: "وأخرج قاين من أمام الرب وأقام بأرض نود شرقي عدن" (٨٥)، وفي التوراة السامرية: "فخرج قاين من حضرة الله وسكن في الأرض طريداً شرقي النعيم" (٨٦)، فإذا كان آدم طُرد من جنة عدن قبل أن يكون له نسل وجعل الله سبحانه الملائكة تحمي الجنة شرقي عدن لئلا يدخلها آدم، فكيف دخل ابن آدم القاتل الجنة حتى يطرد منها بعد ذلك؟!

٨١- تكوين، إصحاح ٤، ١٣-١٥.

٨٢- سورة البقرة، الآية: ٣٦.

٨٣- الكروبيم: ملائكة لكل منها جناحان، انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص ٧٧٩، والسامرية تذكر "الأشباح" بدل الكروبيم.

٨٤- سفر التكوين، إصحاح ٣، ٢٣-٢٤.

٨٥- المصدر السابق، إصحاح ٤، ١٦.

٨٦- المصدر السابق، التوراة السامرية.

١٠ - نسل قابيل:

لم يحدثنا القرآن الكريم شيئاً عن حياة قابيل بعد قتله لأخيه، غير أن التوراة ذكرت نسل قابيل من الأبناء والأحفاد: "وضاجع قابيل امرأته فحملت وولدت حنوك وبنى مدينةً سماها باسم ابنه حنوك، ووُلد لحنوك عيرادُ، وعيرادُ وُلدَ محويائيلَ، ومحويائيلُ وُلدَ متوشائيلَ، ومتوشائيلُ وُلدَ لامِك، وتزوج لامِك امرأتين إحداهما اسمها عادة والأخرى صلَّة، فولدت عادةً يابال وهو أول من سكن الخيام ورعى المواشي، واسم أخيه يوبال وهو أول من عزف بالعود والمزمار. وولدت صلَّة "توبال قاين" (٨٧) وهو أول من اشتغل بصناعة النحاس والحديد، وأخته نعمة. وقال لامك لامرأته: يا عادة وصلة اسمعا صوتي، يا امرأتي لامك أصغيا لكلامي: قتلْتُ رجلاً لأنه جرحني، وفتى (٨٨) لأنه ضربني، لقاين ينتقم سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين" (٨٩).

أقول لأصحاب الروايات الإسرائيلية التي ذكرت أن قابيل أراد الزواج من توأمته - مع أنه كان محرماً في شريعة آدم - من هذه المرأة التي ضاجعها؟ هل هي توأمته؟ معنى هذا أن كل ذريته أبناء زنى! وهناك أمر عجاب وهو أن قابيل يبني مدينة وحده ويسميها باسم ابنه، ولمن يبني مدينة كهذه ولا يوجد بشر غيرهم في ذلك الوقت؟ أيضاً تذكر القصة أن يابال ابن لامك هو أول من رعى المواشي مع أن بداية القصة بينت أن هايبيل كان يرعى المواشي فكيف يكون ذلك الأول؟! وتذكر القصة هنا جريمة قتل غامضة ارتكبتها لامك حيث قتل رجلاً لأنه جرحه وحسب، وقتل فتى صغيراً لأنه ضربه، فهل هذان يستحقان عقوبة القتل بينما هو محميٌّ وكل من يقتله سيضاعف عقابه سبعمائة وسبعين مرة؟! يقول أصحاب قاموس الكتاب المقدس: "الخطاب الذي وجهه لامك لامرأته له تفسيران رئيسيان: أولاً: أنه أقدم على القتل دفاعاً عن النفس. وثانياً: أنه يقصد أن يقتل من يتصدى له بأقل ضرر، وذلك بمناسبة اختراع "توبال قاين" ابنه للسياف الآلة التي تيسر سبل الانتقام، وقد حاول البعض تفسير هذا الشعور بأنه يدل على عزم لامك على استعمال السياف في طرقه المشروعة. ولكن يجمع المفسرون على أن لامك يفاخر بنفسه، فإذا كان قاين الذي قتل رجلاً (هايبيل) قد وضعه الله تحت حمايته وأوصى بأن ينتقم له سبعة أضعاف، فإن لامك،

٨٧- "توبال قاين": معناه ضرب مطرقة الحداد، وكان حداداً، انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص ٢٢٤.

٨٨- في التوراة السامرية: "رجلاً قتلْتُ بشجتي وغلماً بجراحي".

٨٩- سفر التكوين، إصحاح ٤، ١٧-٢٤.

وقد وجد هذا السيف، فإنه ينتقم له سبعة وسبعين" (٩٠). أقول: هل هذا ما يستفاد من قصة قابيل وهابيل تعلم المزيد من القتل والادعاء أن الله يحمي القاتل؟!
 ١١ - العبرة من القصة:

بينما لا نجد في التوراة أي تعقيب على القصة ولا أية فائدة أو حكمة تؤخذ منها نجد القرآن عقب على هذه القصة بما يفيد أخذ العبرة والعظة منها حيث يقول الله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ، مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (٩١).

ومعنى "من أجل" لغة: أي من جُزَاء، وقرئ: "من أجل": أي من جناية ذلك (٩٢)، و "أجل" في الأصل مصدر: أجل شراً إذا جناه، استعمل في تعليل الجنايات كقولهم: من جرّك فعلته، أي من أجرزته أي جنيته، فاستعمل في كل تعليل (٩٣). فمعنى الكلام: من جناية ابن آدم القاتل أخاه ظلماً حكمنا على بني إسرائيل أنه من قتل منهم نفساً ظلماً بغير نفس... (٩٤).

وخصّ القرآن بني إسرائيل بالذكر وقد سبقتهم أمم قبلهم كان قتل النفس فيهم محظوراً لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس مكتوباً وكان قبل ذلك قولاً مطلقاً غلظ الأمر على بني إسرائيل بالكتاب بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء (٩٥). أيضاً لتظهر مذمتهم في أن كتب عليهم هذا وهم مع ذلك لا يراعون ولا ينتهون بل هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ظلماً فخصوا بالذكر لحضورهم مخالفين لما كتب عليهم (٩٦). ومعنى ﴿قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير أن يقتل نفساً فيستحق القتل، وقد حرم الله القتل في جميع الشرائع إلا بثلاث خصال: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس ظلماً وعدواً. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي شرك وقيل: قطع طريق (٩٧).

٩٠ - قاموس الكتاب المقدس، ص ٨٠٥.

٩١ - سورة المائدة، الآية: ٣٢.

٩٢ - أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، ص ١٢.

٩٣ - ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٣١٩.

٩٤ - تفسير الطبري، ج ٦، ص ٢٠٠.

٩٥ - محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، ج ٢، ص ٣٣.

٩٦ - ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٢، ص ١٨١.

٩٧ - تفسير القرطبي، ج ٦، ص ١٤٦.

ومن يقتل نفساً واحدة فكأنما قتل جميع الناس لأن الواحد يمثل النوع في جملته، فمن استحل دماً بغير حق فإنه يستحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله، فتكون نفسه ضارية بالبغي، لا وازع لها من ذاتها ولا من الدين ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن كان سبباً لحياة نفس واحدة بإنقاذها من موت مشرفة عليه فكأنما أحى الناس جميعاً لأن الباعث له على إنقاذ الواحدة وهو الرحمة والشفقة ومعرفة قيمة الحياة الإنسانية واحترامها والوقوف عند حدود الشريعة في حقوقها تندمج فيه جميع حقوق الناس عليه، فهو دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من هلكة يراهم مشرفين على الوقوع فيها لا يتوانى في ذلك ولا يدخر وسعاً (٩٨).

هذه هي الحكمة من ذكر قصة ابني آدم في القرآن الكريم وهي تبين أن الحسد كان أول جريمة في البشر والتي أدت إلى أبشع جريمة يرتكبها الإنسان بحق أخيه الإنسان ألا وهي القتل. ومن الغرائب أن هذه الحكمة العالية من جملة ما نسي بنو آدم من أحكام دينهم؛ إذ فقدت التوراة ثم كتبوا ما بقي في ذاكرتهم من أحكامها (٩٩).

خاتمة:

أهم النتائج التي نتوصل إليها من هذا البحث:

- ١- اختلاف منهج القرآن الكريم بشكل كبير عن منهج التوراة في عرض قصص السابقين.
- ٢- القصة القرآنية جزء من سورة معينة ترتبط بالآيات قبلها وبعدها في حين تسرد القصة في التوراة مرة واحدة دون الارتباط مع غيرها.
- ٣- لا غرابة في وجود تشابه بين قصص القرآن الكريم وقصص التوراة فالمصدر واحد "قبل تحريف التوراة".
- ٤- من الخطأ اعتماد التوراة كمصدر لقصص السابقين وللتاريخ.
- ٥- يجب الاعتماد على القرآن الكريم في دراسة القصص وعدم الاستعانة بالإسرائيليات.
- ٦- لا يوجد ما يدل على أن اسمي ابني آدم هابيل وقابيل، وإن كان هذا هو المشتهر بين الناس.
- ٧- لا نعرف سبب تقديم القربان من قبل الأخوين.
- ٨- القتل أول جريمة ترتكب في الأرض وهي أكبر ما يرتكبه الإنسان في حق أخيه الإنسان.

٩٨- انظر: رضا، تفسير المنار، ج ٦، ص ٢٨٩.

٩٩- المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٩٠.

- ٩- القاتل ضعيف وخاسر مهما ظن في نفسه القوة.
- ١٠- دخول الكثير من الخرافات على قصة ابني آدم.
- ١١- معظم المفسرين إن لم يكن كلهم ذكروا روايات الطبري في شأن هذه القصة.
- ١٢- يشير القرآن الكريم إلى العبرة من ذكر القصة بينما لا تأخذ من قصة التوراة أية عبرة بل هي مجرد سرد لأحداث تعطي توجيهات أخلاقية وسلوكية سيئة.
- آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

Abstract

Story of the Two Sons of Adam in Qurān and Torah: A comparative study

This paper discusses the story of the two sons of Adam in the Qurān and the Torah in which have been explained the similarities between the Qurān and the Torah regarding this story. Thereafter, the paper talks about the differences between the two regarding the same story. The differences have been found much more than the similarities. The paper also refers to the opinions of different scholars about the story of the two sons of Adam.
